المحاضرة الثانية

الأصل الأول عند المعتزلة: التوحيد

المحاضرة الثانية: الأصل الأول عند المعتزلة ــ التوحيد

تمهيد

يحتل التوحيد المرتبة الأولى في أصول المعتزلة الخمسة، بل يمثل الأساس النظري الذي تنتظم حوله بقية الأصول. والمقصود به عندهم ليس مجرد الإقرار بوجود الله ووحدانيته، وإنما بناء تصور متكامل عن الذات الإلهية وصفاتها وأفعالها، يحقق التنزيه وينفي التشبيه، ويحفظ وحدانية الله المطلقة.[1] ولهذا سمّى المعتزلة أنفسهم أحيانًا أهل العدل والتوحيد؛ لأنهم رأوا أن العدل والتوحيد متلازمان، وأن فساد أحدهما يفضي إلى اضطراب التصور العقدي كله.

أولًا: معنى التوحيد في البناء المعتزلي

يراد بالتوحيد إثبات أن الله واحد لا شريك له، ليس كمثله شيء، ولا تحيط به الحدود والجهات والأجسام، ولا يشبه الحوادث في قيامه أو صفاته. ويقوم هذا الأصل على نفي كل ما يؤدي إلى التجسيم أو التشبيه أو تعدد القدماء. فالله عند المعتزلة قديم بذاته، وما عداه حادث مخلوق، ولا يجوز أن يشاركه شيء في القدم أو الوجوب.[1] [2]ومن هنا رفض المعتزلة أن تكون الصفات الإلهية معاني زائدة قائمة بذات الله على نحو يجعلها أشياء قديمة متعددة. لم يقصدوا نفي العلم والقدرة والحياة عن الله، بل قصدوا نفي أن تكون هذه الصفات ذواتًا أو جواهر مستقلة عن الذات. ولذلك عبّروا عن مذهبهم بعبارات من قبيل: إن الله عالم بذاته، وقادر بذاته، وحي بذاته، أي إن صفاته ليست كيانات قديمة متميزة تضاف إلى الذات إضافة الأجزاء. [1]

ثانيًا: التأويل والتنزيه

لما واجه المعتزلة نصوصًا توهم التشبيه، مثل آيات اليد والوجه والاستواء والمجيء، لجؤوا إلى التأويل أو التفويض المنضبط بالتنزيه، فحملوا اليد على القدرة أو النعمة، والوجه على الذات أو القصد، والاستواء على معنى يليق بالله لا على الجلوس والاستقرار المكاني. ولم يكن التأويل عندهم رفضًا للقرآن، بل محاولة للجمع بين دلالة النص القطعية ومبدأ التنزيه العقلي الذي استندوا فيه إلى قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى: 11].

ثالثًا: خلق القرآن

تُعد مسألة خلق القرآن أشهر تطبيقات أصل التوحيد. قرر المعتزلة أن القرآن كلام الله، لكنه من حيث الألفاظ والأصوات والنظم المبلَّغ إلى البشر مخلوق حادث، وليس قديمًا قائمًا بذات الله. واستندوا إلى أن القول بقدم القرآن، إذا فُهم على أنه شيء آخر قائم بذات الله ومتميز عنها، قد يؤدي إلى إثبات قديمين، وهو ما يناقض وحدانية الله المطلقة.[2] وينبغي عرض هذا الموقف في سياقه الجدلي؛ فقد كان المقصود الأساسي عندهم حماية مبدأ التوحيد، لا إنكار قدسية القرآن أو مصدره الإلهي.

رابعًا: التوحيد وعلاقة العقل بالنص

أعطى المعتزلة العقل وظيفة مركزية في معرفة الله وتمييز التوحيد من التشبيه، ورأوا أن العقل يستطيع إدراك أصول عامة مثل وجود الخالق، وقبح الظلم، ووجوب شكر المنعم. أما الوحي فيكشف للإنسان تفاصيل التكليف والعبادة وما لا يستقل العقل بإدراكه. فإذا بدا تعارض بين ظاهر نص ودليل عقلي قطعي،

حملوا النص على معنى مجازي ينسجم مع أصول التنزيه. وهذه المنهجية تفسر كثرة عنايتهم بالبرهان والنظر واللغة، كما تفسر اعتراض خصومهم على توسيع مجال التأويل.[3]

خامسًا: القيمة العلمية للأصل

تكمن أهمية أصل التوحيد في أنه وضع معيارًا منهجيًّا لقراءة العقيدة: كل فهم يؤدي إلى التشبيه أو التجسيم أو تعدد القدماء مرفوض، وكل تفسير يحفظ التنزيه ووحدانية الله جدير بالنظر. كما أتاح هذا الأصل للمعتزلة بناء حوار مع الفلسفات والديانات المختلفة بلغة مشتركة هي لغة البرهان. غير أن الصياغة المعتزلية ظلت موضع خلاف؛ إذ رأى الأشاعرة وأهل الحديث أن إثبات الصفات لا يستلزم تعدد الذوات أو التشبيه، وأن التأويل الواسع قد يبتعد عن ظواهر النصوص.

خاتمة

التوحيد عند المعتزلة مشروع تنزيهي شامل، يتناول الذات والصفات والقرآن وعلاقة العقل بالنص. ومن خلاله حاولوا صيانة وحدانية الله من التشبيه ومن تعدد القدماء، وإن أدى ذلك إلى مواقف خالفوا فيها مدارس كلامية أخرى. ولذلك لا يُفهم هذا الأصل فهمًا دقيقًا إذا اختُزل في عبارة «القرآن مخلوق»، بل ينبغي وضع هذه المسألة ضمن منظومة أوسع غايتها تثبيت التوحيد المطلق.

مراجع المحاضرة الثانية

[1]: القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، 1965، أبواب التوحيد؛ وتتوفر نسخة رقمية عبر Internet Archive.

[2]: Shalahudin Kafrawi، “Muʿtazilites, Muʿtazila”، Encyclopedia of Islam and the Muslim World، مدخل متاح كاملًا عبر Encyclopedia.com.

[3]: Daniel Gimaret، “Muʿtazila”، Encyclopaedia of Islam, Second Edition، نص إلكتروني متاح كاملًا عبر Islamic Philosophy Online.